اسم الدرس : تفسير سورة الأعراف (١٢) | الآيات [١٠٠ : ١١٠]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

❖ مقدمة

نستكمل بإذن الله –عزَّ وجل– ما بدأناه من وقفات، ومدارسة مجلس سورة الأعراف ، وهذا هو المجلس الثاني عشر.

كنا توقفنا عند الآية مائة، قول الله –سبحانه وتعالى–:

{ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ۝ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا }[الأعراف : ١٠٠-١٠١] .

أخبرنا الله –عزَّ وجل– في الآيات الماضية في قوله :

{ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ۝ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ }[الأعراف : ٩٧-٩٨] .

فيخبرنا ربنا سبحانه وتعالى أن من سُنته –سبحانه وتعالى– أن ينُزِل بأسَه على الخارجين عن طاعته، على الكافرين الفاسقين الذين رفضوا وردّوا الأنبياء، ورفضوا الآيات، فيُنزِل الله –عزَّ وجل– بأسه إذا أراد في الوقت الذي يشاء –سبحانه وتعالى– عليهم، فالله –عزَّ وجل– لا يعجل بعجلة أحد.

ونزول هذا البأس ليس مرتبطًا بزمن، وليس مرتبطًا بوقت، قد يأتي بياتًا وقد يأتي ضُحىً، لكن بما أنَّ أغلب أوقات هؤلاء الناس –إن لم تكن جُلّ أوقات هؤلاء الناس– في غفلة ، فبالليل ينامون وفي الضحى يلعبون، فهو حمارٌ بالنهار جيفةٌ بالليل، فأيُما وقت نزل عليه العذاب فهو في غفلة .

فدائمًا حينما ينزل العذاب في وقت انشغال الناس بدنياهم، أو بلَهْوِهم، أو براحتهم ، يكون هذا العذاب أشدَّ إيلامًا .

وكما تكلمنا في أول سورة الأعراف عن تنوع نزول البأس في الأوقات ، وأنَّه غالبًا يأتي في أوقات شدة الغفلة، وغالبًا ما يأتي العذاب كما أخبر رَبُنا –سبحانه وتعالى– في سورة يونس حينما يصل الناس إلى مرحلة { وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ } [يونس : ٢٢] .

لذلك يدّعي العالم الغربيّ الآن –والشرقي أيضًا– بتقدمه الدُنيويّ، أو ادّعي فيما مضى قبل هذه الثورة المعلوماتية الرهيبة، أن مع مرور الوقت ستزداد المساحة المعروفة أو المعلومة وتقل المساحة المجهولة من العالم .

كانوا يدّعون أن مع مرور الوقت سيصلون إلى مرحلة أن يكشف العلم كل شيء ، وتقل مساحة الجهل ، كاكتشافهم كواكب ، أو اكتشافهم أشياء في داخل الإنسان من إنزيمات ، وتطور الميكروسكوبات، اكتشافهم أشياء لم يكونوا يعرفونها سواء في جسم الإنسان أو خارج جسم الإنسان ، كانوا يعتقدون أن مع مرور الوقت ستزداد مساحة العلم وتقل مساحة الجهل.

لكن قال رَبُنا –سبحانه وتعالى–: { وَما أوتيتُم مِنَ العِلمِ إِلّا قليلًا }[الإسراء : ٨٥] فبالعكس، ***كلما ازدادت مساحة العلم اكتشفوا مدى جَهلهم واتسعت الفجوة*** .

فهم كانوا معتقدين أنهم سيصلون إلى مرحلة نهاية التاريخ ونهاية العالم ، وأنهم يقدرون على كل شيء ، لذلك قال رَبُنا –سبحانه وتعالى–: { وَظَنَّ أَهلُها أَنَّهُم قادِرونَ عَلَيها }[يونس : ٢٤] هذا لن يحدث، قال رَبُنا –سبحانه وتعالى–: {وَظَنَّ أَهلُها أَنَّهُم قادِرونَ عَلَيها أَتَىٰها أَمرُنا لَيلًا أَو نَهارا فَجَعَلنَٰها حَصِيدا كَأَن لَّم تَغنَ بِٱلأَمسِ}[يونس : ٢٤] في هذه اللحظات ينزل البأس على هؤلاء الناس والعياذُ بالله.

ثم أخبرنا رَبُنا –سبحانه وتعالى– مخاطبًا أُمّة النبي –صلى الله عليه وسلم– بعد أن قصّ عليهم كل القصص السابقة ، فيقول الله –عزَّ وجل–:

{ أَوَلَم يَهدِ لِلَّذينَ يَرِثونَ الأَرضَ مِن بَعدِ أَهلِها أَن لَو نَشاءُ أَصَبناهُم بِذُنوبِهِم وَنَطبَعُ عَلى قُلوبِهِم فَهُم لا يَسمَعونَ }[الأعراف : ١٠٠]

{ أَوَلَم يَهدِ لِلَّذينَ يَرِثونَ }[الأعراف : ١٠٠] بمعنى أولم يتبين لهم؟

وجاء فعل الهداية مكان التبيين، لأن هذه القصص وهذا البيان كان كافٍ لهدايتهم لولا أنَّهم أعرَضوا، ولولا أنَّهم جحدوا { وَجَحَدوا بِها وَاستَيقَنَتها أَنفُسُهُم }[النمل : ١٤].

فهذا البيان الذي جاء في سورة الأعراف من قصص السابقين وكيف أنَّ الله –عزَّ وجل– أهلكهم كان كافيًا لهدايتهم لولا أنَّهم أعرَضوا، فقال رَبُنا –سبحانه وتعالى–: {أَوَلَم يَهدِ لِلَّذينَ يَرِثونَ الأَرضَ مِن بَعدِ أَهلِها}[الأعراف : ١٠٠] أي أتى الله –عزَّ وجل– بأقوام فأرسل إليهم الرسل {وَجاءَتهُم رُسُلُهُم بِالبَيِّناتِ} فأعرض الأقوام عن الرسل، وكذبوا بالآيات، فأنزل الله –عزّ وجل– عليهم بَأسَه –سبحانه وتعالى– فأهلكهم.

فجاء قوم من بعدهم وسكنوا في نفس الأماكن {وَسَكَنتُم فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُم وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيفَ فَعَلنَا بِهِم وَضَرَبنَا لَكُمُ ٱلأَمثَالَ}[إبراهيم : ٤٦] كما في آخر سورة إبراهيم .

يأتي الأقوام ويسكنون في نفس الأماكن التي كان فيها إهلاك السابقين، ويترك الله –عزَّ وجل– بقايا من آثارهم، كما نشاهد الآن في أهرام الفراعنة.

فنحن نشاهد هذه الآثار لتدل أنَّ هذه القوة وهذه المنعة وهذا التقدم لم يمنعهم شيء من نزول بأس الله –عزَّ وجل– ، بل أغرق الله –عزَّ وجل– فرعون ليكون عبرة لمن خلفه.

فنَسكُن في نفس الأماكن ثم نفعل نفس المعصية وكأننا لا نعتبر بما حدث.

فيقول الله –عزَّ وجل–: {أَوَلَم يَهدِ لِلَّذينَ يَرِثونَ الأَرضَ}[الأعراف : ١٠٠] جاءتهم الأرض ليس بجُهدٍ منهم بل وراثة ، أتى بهم الله –عزَّ وجل– وأسكنهم الأرض { أَوَلَم يَهدِ لِلَّذينَ يَرِثونَ الأَرضَ مِن بَعدِ أَهلِها }[الأعراف : ١٠٠] أي أهلها السابقين الذين أهلكهم الله –عزَّ وجل–.

تخيل إنسانًا يجلس في مكان أو يجلس على كرسيّ حكم مثلًا، وهذا الكرسيّ جلس عليه رجلٌ قبله عصى الله –عزَّ وجل–، فأهلكه الله –عزَّ وجل–، ثم يجلس عليه فيفعل نفس الفِعْلة، فهو لا يعتبر بمن سبق، بل يظن أنَّه سيفلت من عقاب الله –عزَّ وجل–.

أيضًا يخاطب الله –عزَّ وجل– الذين في عهد النبي –صلى الله عليه وسلم–: أولم يتبين لكم كيف أنَّ الله –عزَّ وجل– أهلك الناس من حولكم؟!

{أَوَلَم يَهدِ لِلَّذينَ يَرِثونَ الأَرضَ مِن بَعدِ أَهلِها أَن لَو نَشاءُ أَصَبناهُم بِذُنوبِهِم}[الأعراف : ١٠٠]

الله –عزَّ وجل– يخبرُ قريشًا ومَن تصله هذه الآيات، أنّ تأخير نزول العذاب ليس بعجزٍ منه –سبحانه وتعالى– حاشاه.

فيخبرهم الله –عزَّ وجل–، أنَّ الله لو أراد أن يُهلكهم بذنوبهم لفعل {ذٰلِكَ وَلَو يَشاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنهُم}[محمد : ٤] ، ولكن مضت سُنته –سبحانه وتعالى– بغير ذلك ، كما سنشرح في بداية قصة موسى، في قوله –سبحانه وتعالى–: {ثُمَّ بَعَثنا}، ولماذا جاءت "ثم" التي تفيد التراخي.

فيخبرهم الله –عزَّ وجل– أنَّ الله قادر على أن يهلكهم بذنوبهم، والدليل على أنَّ الله قادر على أن يهلككم بذنوبكم أنه أهلك السابقين من قبلكم ، فالله قادر، لذلك قال رَبُنا –سبحانه وتعالى: {أَن لَو نَشاءُ أَصَبناهُم}[الأعراف : ١٠٠]

والإصابة أن يتوجه العذاب فيه مباشرةً فيُصيبه .

{أَن لَو نَشاءُ أَصَبناهُم}[الأعراف : ١٠٠] أي إصابة مُوجهة مباشرة إليهم.

{أَن لَو نَشاءُ أَصَبناهُم} وباء السببية {بِذُنوبِهِم} أي بسبب ذنوبهم فتكون الذنوب سببًا لنزول العذاب، ولكن الله –عزَّ وجل– لم يشأ ذلك {أَن لَو نَشاءُ أَصَبناهُم بِذُنوبِهِم}[الأعراف : ١٠٠]، أو شاء إصابة الذنوب بأمر غير الإهلاك والاستئصال .

مَضت مشيئةُ الله –عز وجل– في الأمم بعد بعثة موسى عليه السلام ولا سيما من بعد نزول التوراة كما سَنُبين بإذن الله –عز وجل–، أن مشيئةَ الله –عزَّ وجل– لم تقتضِ عذاب الاستئصال– ولكن عذابًا آخر مثل الجوع، الفقر، البأس، المرض، أو تسليط المؤمنين عليهم، مضت مشيئة الله –عز وجل– بذلك.

{أَن لَو نَشاءُ أَصَبناهُم بِذُنوبِهِم وَنَطبَعُ عَلى قُلوبِهِم فَهُم لا يَسمَعونَ}[الأعراف : ١٠٠]

حقيقةً هذه الواو {ونطبع} اختلف فيها كثير من المفسرين، لأن لو كانت "الواو عاطفة"، فكيف يُعطَف الفعل المضارع: "نطبع"، الذي يُفيد الاستقبال على فعل: "أصبناهم" الذي يفيد الماضي؟، بل كان متوقعا أن تكون: "أن لو نشاء أصبناهم وطبعنا على قلوبهم" .

- **فلماذا جاءت "نطبع"؟**

ولذلك اختار كثير من المفسرين أَنَّهَا "واو الاستئناف"، أي: لن نفعل بكم مثلما فعلنا بهم ولكن سوف نطبع على قلوبكم .

لذلك قدّر بعض أهل العلم ما معناه:

"ونحن نطبع على قلوبهم"، أي قلوب المعرضين فهم لا يسمعون، أي لا يستفيدون العبر من قصص السابقين.

{وَنَطبَعُ عَلى قُلوبِهِم} وهناك خوض نَحوي كثير واختلاف بين النحويين في هذه الواو ليس هذا محله.

{ وَنَطبَعُ عَلى قُلوبِهِم فَهُم لا يَسمَعونَ }[الأعراف : ١٠٠] أي أن سبب عدم الاعتبار ليس عدم وضوح الآيات، وهذا معنى مهم جدًا، وسيظهر معنا في قصة موسى -عليه السلام- مع فرعون عليه لعنة الله ، أن إعراض الناس ليس سببه الرئيسي عدم وضوح الآيات.

فكثير من الناس يعتقد أنه لو كانت الآيات أكثر وضوحًا لآمن الناس، السبب الرئيسي الغالب هو الإعراض بسبب أنَّ الله -عزَّ وجل- طبع على قلوبهم ، (إنَّ في الجسد مضغة إذا فسدت فسد كل شيء)[١]

لذلك لما قال رَبُنا -سبحانه وتعالى-: {وَنَطبَعُ} لم يقل على أسماعهم فهم لا يسمعون ، لم يقل ونطبع على آذانهم فهم لا يسمعون ، إنما قال {وَنَطبَعُ عَلى قُلوبِهِم}[الأعراف : ١٠٠] فلما جاء الطبع على القلب فسدت الأُذن فلم تستفد مما تسمع.

{فَهُم لا يَسمَعونَ}[الأعراف : ١٠٠] فليس المقصد أنهم لا يسمعون الأصوات، أو أنَّ جارحة الأذن لا تعمل، لا، بل لا يسمعون سماع اعتبار وفهم، فأنت تصرخ عليه، وتُنادي عليه، وتُحذره، وتقُص عليه قَصص السابقين وهو لا يعتبر وكأنَّه لا يسمع شيئًا {كَمَثَلِ الَّذي يَنعِقُ بِما لا يَسمَعُ}[البقرة : ١٧١] يسمع مجرد أصوات فقط لا يعتبر منها.

فقال ربنا -سبحانه وتعالى- كانت عقوبة المقيمين في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- هي الطبع على القلب فلم يستفيدوا من هذه الآثار، وهذه أشد عقوبة يعاقب بها الإنسان -والعياذ بالله- أن يُطْبع على قلبه.

{وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ}[الأعراف : ١٠٠] أي: فبالتالي هم {لا يَسمَعونَ}، لا يستفيدون من القرآن، ولا يستفيدون من العظات والعبر.

---

[١] [عن النعمان بن بشير:] الحَلالُ بَيِّنٌ، والحَرامُ بَيِّنٌ، وبيْنَهُما مُشَبَّهاتٌ لا يَعْلَمُها كَثِيرٌ مِنَ النّاسِ، فَمَنِ اتَّقى المُشَبَّهاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وعِرْضِهِ، ومَن وقَعَ في الشُّبُهاتِ: كَراعٍ يَرْعى حَوْلَ الحِمى، يُوشِكُ أنْ يُواقِعَهُ، ألا وإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، ألا إنَّ حِمى اللَّهِ في أرْضِهِ مَحارِمُهُ، ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً: إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وهي القَلْبُ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٥٢ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)باختلاف يسير.

○ لماذا طبع الله على قلوبهم؟

ستأتي الآية التالية تشير إلى ذلك في أحد أقوال المفسرين أو في أحد اختيارات المفسرين.

ثم قال ربنا -سبحانه وتعالى-: {تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا}[الأعراف : ١٠١] إذا لم يستفد هؤلاء من هذه القصص فاستفد منه أنت والمؤمنون، ليكون لك زادًا في الطريق.

{تِلْكَ الْقُرَىٰ} واسم الإشارة دائمًا يأتي للمحسوس الملموس، متى نستعمل اسم الإشارة مع المعنويات -أمر معنوي-؟

حينما يكون واضحًا بارزًا، {تِلْكَ الْقُرَىٰ} بالرغم من أننا لا نشاهدها الآن، لكن من شدة يقيننا في كلام الله -عز وجل- لنا، في وصف هذه القرى وما حدث لها فكأننا نشاهدها.

{تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا}[الأعراف : ١٠١] أي أخبار عظيمة، قصص السابقين طالما أن الله -عز وجل- قصه علينا، إذًا هذا أمر جدير بالاعتبار.

وهذا يعني أنه حين يخبرنا أحد بما حدث للأقوام السابقين الظالمين من إهلاك، فهذا ليس أمرًا للترف الذهني، بل أمر مهم، أن يقص علينا وأن نكرر ذلك حتى نتذكر قدرته -سبحانه وتعالى-، وألا ننشغل بالأحداث الحالية.

لابد أن نعتبر بتكرار هذه القصص؛ أن الله -عز وجل- قادر على أن يُنْزِل بأسه إذا شاء -سبحانه وتعالى-.

{تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا}[الأعراف : ١٠١]

ولم يقل من أخبارها، والنبأ هو الأمر العظيم {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ}[النبأ : ١-٢].

{وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ}.. [الأعراف : ١٠١]

أي أن الله -عز وجل- أهلكهم بعد ما جاءتهم البينات {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا}[الإسراء : ١٥]

{وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ}[الأعراف : ١٠١]

وقلنا أنه من محاور سورة الأعراف: الإعراض عن البينات، الإعراض عن الآيات، والتعامل الخاطئ مع آيات الرُسل.

{وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ}[الأعراف : ١٠١] ولكن لم ينتفعوا من هذه البينات.

{فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ}[الأعراف : ١٠١]

ولنا وقفة مع هذه الآية أو هذه الجملة التي حيّرت كثيرًا من المفسرين ، واختلفوا فيها.

{فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ}[الأعراف : ١٠١] فما سبب الاختلاف في هذه اللفظة ؟

أن {فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا} معناها أنهم كذبوا، فماذا أفادت هذه الآية؟

ما أحدث الاختلاف أن فاعل {يُؤْمِنُوا} عند كثير من المفسرين هو فاعل {كَذَّبُوا}، {فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا}[الأعراف : ١٠١] هو نفس الفاعل.

فقالوا أنه لو كان نفس الفاعل ، فماذا أفادت الآية؟

{فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ}[الأعراف : ١٠١] فالعلماء إما اختلفوا في كلمة {مِن قَبْلُ} – ونحن دائمًا نحاول أن نبين ما هي الأسباب وراء اختلاف المفسرين–، اختلفوا في كلمة {مِن قَبْلُ}، ماذا تعني الكلمة؟

- وبعض أهل العلم قال أن الباء هنا لها معنى مختلف،
- وبعض أهل العلم قال أن الفاعل مختلف ، أن "الذين كذبوا" غير "الذين آمنوا".
  - **إذًا أسباب الاختلاف ثلاثة:**

*هل الفاعل في "ليؤمنوا" هو نفس فاعل "الذين كذبوا" أم مختلف عنه؟

*ماذا تعني كلمة "من قبل"؟

*هل الباء في {بما كذبوا} باء السببية؟ أم لا؟

***فلنتكلم أولا في كلمة {مِن قَبْلُ}:**

- قال بعض أهل العلم {فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا} لما جاءتهم البينات {بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ} أن تأتيهم البينات.

وهكذا يكون معنى الآية:

{وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا}[الأعراف : ١٠١] بهذه البينات بالذي كذبوا به قبل أن تأتي هذه البينات.

بمعنى أنه جاء رسول إلى قوم فقال لهم: اعبدوا الله، الله لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد ، وتكلم معهم ، فرفضوا وطلبوا بينة، فأتاهم الرسول بالبنية فلم يؤمنوا بما كذبوا من قبل، أي من قبل مجيء البينة.

وعلى هذا إذا أحببنا أن نضع المحذوف لكلمة "من قبل" {بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ} سنقول: من قبل مجيء البينات ، وهذا هو القول الأشهر والأول.

{فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ}[الأعراف : ١٠١] فمن اختار القول الأول، اختار أحيانًا بعضهم أن الباء سببية –وهذا اختيار ابن كثير وصدَّر به كلامه. فما معنى سببية؟

أي { فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا } بسبب أنهم كذبوا أول ما جاءتهم الرسل، والدليل على هذا المعنى من القرآن، آية من القرآن جاءت في سورة الأنعام: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ}[الأنعام : ١١٠]، معنى الآية –في سورة الأنعام– أنه حين يأتيك الرسول بكلام واضح موافق للفطرة وأنت تُعرض عنه قد تُعاقب بالحرمان .

حينما يأتيك الأمر واضح جليّ وتُصر على الإعراض قد تُعاقب بالحرمان منه –والعياذ بالله–.

بمعنى أن إنسان قد يُبين الله –عز وجل– له الحق، ويُرسل له رسائل كثيرة ، ولكن يُصر على الإعراض، فهذا قد يُعاقب بالحرمان من هذا الحق –والعياذ بالله–، يُطْبع على قلبه بسبب أنه رفض الحق أول مرة؛ بالرغم من أنه جاءه واضحًا، فقال {فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا} بسبب أنهم كذبوا به من قبل.

وقال بعض الأئمة –كما قلنا– أن الباء عادية {فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا} بالذي كذبوا به من قبل مجيء البينات، أي أن البينات لم تفدهم شيئًا .

وهذا ما نقوله: أن إعراض الناس ليس بسبب عدم وضوح الآيات والبيانات ، فكما قلنا يظن كثير من الناس أن الأمر لو يزداد وضوحًا، لو نملك أدلة زيادة، لو معنا آية حسية نريها للناس لصدقوا، ولكن هذه ليست القضية في الحقيقة.

تمنى كثير من المؤمنين أن يُنزل الله –عز وجل– ملائكة، أو يُنزل آيات واضحات حتى يؤمن المشركون، ولكن القضية في الإعراض، في أنهم كذبوا بالواضحات؛ فعاقبهم الله –عز وجل– وطبع على قلوبهم ، فازدادوا بُعدًا –والعياذ بالله–.

- وقال آخرون –وهذا اختيار الإمام الطبري: أن {فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ}[الأعراف : ١٠١] كلمة "من قبل" هنا المقصود بها منذ زمن بعيد، منذ لحظة أخذ الميثاق عليهم، آية الميثاق الموجودة في سورة الأعراف {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ}[الأعراف : ١٧٢]، فلما أخذ الله الميثاق عليهم وآمنوا وقالوا آمنا، كانوا يُضْمرون الكفر، وهذا أحد الأقوال.

وطبعًا سوف يأتي الخلاف: هل هذا الميثاق الذي أُخِذ ميثاق حقيقي، وبالفعل المقصد في آية سورة الأعراف أنه ميثاق حقيقي وأن الله –عز وجل– أخذ الميثاق عليهم حقيقة أم المقصد الفطرة؟

بمعنى هل هذا الميثاق حدث حقيقةً و أن الله –عز وجل– أخذ الميثاق وأجاب كل الناس وقالوا نعم والذي أضمر الكفر وقال نعم آمنت قالها كَرهًا وأضمر الكفر هذا الذي يُكتب عليه الكفر، أم أن المقْصود بالميثاق الفطرة وأنهم خالفوا فطرتهم؟ فيكون معنى {بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ} أي بما عاندوا فطرتهم؟

سيأتي الخلاف في هذه الآية بإذن الله –عز وجل– إن وصلنا إليها في آخر سورة الأعراف، الشاهد أن هذا وارد عن بعض السلف واختيار الطبري {بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ} أي من يوم العهد والميثاق.

- وقال بعض أهل العلم فما كانوا ليؤمنوا بما كذب به آباؤهم من قبل.

فحلوا المسألة بأن غيروا الفاعل وهو "الواو"، وقالوا لماذا ندخل في الاشكال؟ هذه "الواو" في {فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا} أي هؤلاء {بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ} أي بما كذب آباؤهم من قبل.

ربما يكون فهم الآية صعب، ولكن نريد أن نتدرب أنه حين نقرأ اختلاف المفسرين نعرف ما هي أسباب التفرع، وما هو مَوْرِد القسمة التي اختلفوا عندها، مثلما يفعل ابن رشد في كتابه في الفقه "بداية المجتهد"، فيبحث في أسباب اختلاف الفقهاء، هكذا نحن نحاول أن نبحث في أسباب اختلاف المفسرين.

فاختلفوا في كلمة "من قبل" هل من قبل مجيء البينات؟ أو من قبل الميثاق؟ أو من قبل بعثة الرسل؟

وهناك من اختار أن المعنى: من قبل بعثة الرسل أن {فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ}[الأعراف : ١٠١]

أي قبل أن يأتيهم الرسول كانوا مكذبين ، ومن بعدما أتاهم الرسول كانوا مكذبين، وهذا رأي فيه نزعة اعتزالية بعض الشيء، فالمذهب الاعتزالي العقدي يُوجب على الإنسان أن يتفكر بعقله وأن يصل للإيمان بعقله، هؤلاء هم المعتزلة، لذلك تجد أي مفسر معتزلي يميل لهذا القول، ولكن أنا حذفت هذا القول من الاختيارات التي معنا.

وهكذا يكون المعنى : -

- من قبل مجيء البينات
- من قبل لحظة أخذ الميثاق
- أو أن هؤلاء مختلفون عن هؤلاء
- أو أن الباء باء السببية

أن سبب تكذبهم، سبب أنهم لم يؤمنوا، أنهم بالرغم من وجود الآيات واضحات إلا أنهم أعرضوا أول مرة فعاقبهم الله -عز وجل- بالحرمان.

مِثل أن يقول لك شخص -ولله المثل الأعلى- خذ هذا الكتاب ويقنعك ويوضح لك ويبين لك ضرورة أخذه ، وأنت تكون مقتنعًا أنك لا بد أن تأخذه ، ولكن تقول: لا، لا أريد، فيكون العقاب بأن يقول لن أعطيه لك، وتأتي وتقول أريد الكتاب، يكون الرد "لا الفرصة انتهت".

فهناك أناس يعاقبون -والعياذ بالله- بسبب الإعراض عن الحق الواضح البيّن، الجحود يُعاقب بأن يطرد كما حدث مع إبليس فكانت الفرصة أمامه فلما أصر واستكبر عُوقب بالطرد -والعياذ بالله.

{فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبلُ كَذَٰلِكَ يَطبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلكَٰفِرِينَ}[الأعراف : ١٠١]

أي كما فعل الله -عز وجل- مع هؤلاء المعرضين عن الآيات وطبع على قلوبهم، كذلك يطبع الله على قلب كلِّ كافر جاءته الرسل بالبينات وأعرض وجحد واستمر في إعراضه، تكون عقوبته -والعياذ بالله- الطبع على قلبه ، أي أن عملية الطبع لم تنته.

إذا كانت عملية الاستئصال الكامل انتهت ببعثة موسى وإنزال التوراة، فعملية الطبع لم تنتهِ بعد {كَذَٰلِكَ يَطبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلكَٰفِرِينَ}[الأعراف : ١٠١] -والعياذ بالله-.

ثم قال ربنا -سبحانه وتعالى-:{وَمَا وَجَدنَا لِأَكثَرِهِم مِّن عَهد}[الأعراف : ١٠٢]

آية مؤلمة، أكثر الناس يعطون عهود مع الله -عز وجل- ثم ينقضونها -والعياذ بالله-، كلنا ذلك الرجل، لكن منا من يعود مسرعًا تائبًا إلى الله -عز وجل- ومنا من يُصر.

اجعل هذه الآية شعار: هل أنت من هؤلاء؟ هل أنت من هؤلاء الكثير الذين نقضوا عهودهم مع الله -عز وجل-؟ {وَمَا وَجَدنَا لِأَكثَرِهِم مِّن عَهد}[الأعراف : ١٠٢]

تفكر في حياتك: هل أكثر عهودك تنقضها مع الله -عز وجل-؟ أنت على مستوى حياتك على تاريخ حياتك؛ هل كلما أبرمت عهدًا مع الله -عز وجل- نقضته أم حاولت وجاهدت حتى إذا وقعت قمت مرة أخرى وتسير في الطريق؟

بعضهم يَعُد هذه الآية محورية في سورة الأعراف، نقض العهد، كثير من الأقوام نقضوا عهودهم مع الرسل ومع الله -عز وجل، لذلك العهد اختلفوا فيه

{وَمَا وَجَدنَا لِأَكثَرِهِم مِّن عَهد}.. [الأعراف : ١٠٢]

- **ما هو العهد الذي نقضته هذه الأقوام مع الله -سبحانه وتعالى؟**
  - هل مجيء الرسل وأنهم أمروهم بطاعة الله -عز وجل- هل هذا هو العهد الذي نُقِض؟
  - أم أن أيضًا في هذه الآية إشارة إلى آية الميثاق في سورة الأعراف، أنهم نقضوا هذا العهد الذي أخذه الله -عز وجل- عليهم في لحظة أخذ الميثاق؟
  - أم أن العهد المقصود به الفطرة؟

فإذًا العهد مجرد أن تقول أنك مسلم فأنت تقيم عهدًا بينك وبين الله -عز وجل- ، لذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- قال:

(العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة)[٢] أن الصلاة عهد بينك وبين الله -عز وجل-، فإذا تركت الصلاة نقضت العهد مع الله -عز وجل-.

فكذلك أمور الشريعة، أنت تقول أنا مسلم أي أنا استسلمت لأمرك يا رب، فهذا عهد بينك وبين الله. فحين تَقْبل ذلك ثم تعرض عنه، أو حتى قبل القبول أن ترفض ذلك، فيُشَبَّه الأمر كأنك رفضت ونقضت العهد مع الله.

فيقول الله -عز وجل- كثير من الناس يُعْرض عليهم هذا العهد فيرفضونه

[٢] [عن بريدة:] إنَّ العهدَ الَّذي بيْنَنا وبيْنَهم الصَّلاةُ فمَن تركَها فقد كفَر.
ابن حبان (ت ٣٥٤)، صحيح ابن حبان ١٤٥٤ • أخرجه في صحيحه

{وَمَا وَجَدنَا لِأَكثَرِهِم مِّن عَهد} بل {وَإِن وَجَدنَآ أَكثَرَهُم لَفَٰسِقِينَ}[الأعراف : ١٠٢] بل كثير من الناس يرفض ذلك العهد، لذلك اختار القرآن هنا كلمة {وَإِن وَجَدنَآ أَكثَرَهُم لَفَٰسِقِينَ}[الأعراف : ١٠٢] ولم يقل لكافرين بل قال { لَفَٰسِقِينَ} فلماذا جاءت كلمة الفسق مع العهد؟ وما هي العلاقة؟

الفسق في اللغة: فَسَقَتْ الرطبة، أي أن الثمرة تقوم بقطع القشرة وتخرج من القشرة، في هذه اللحظة يقولون: فسقت الرطبة، أي شقت القشرة وخرجت ولم تحتمل وجود القشرة، أي أنها تنمو فتقطع القشرة، فكلُّ رافضٍ لشرعٍ يَحُوطُه هو فاسق.

كثير من الناس يَرفض أن يُحاط بشرع، أن يُؤمَر وأن يُنهى، لذلك لفظ الفسق لفظ عام قد يُطلق على العاصي الجريء في المعصية، أو على المجرم، أو على الكافر، هو لفظ واسع جاء استعماله في القرآن مختلفًا.

فقال ربنا –سبحانه وتعالى– أن الذين ينقضون العهود هؤلاء أناس يرفضون الالتزام بالشريعة أصلًا، يرفضون أن يلتزموا بأي شيء كما قال ربنا –سبحانه وتعالى–: {بَل يُرِيدُ ٱلإِنسَٰنُ لِيَفجُرَ أَمَامَهُ}[القيامة : ٥] .

فالفاسق أشبه بلفظة الفاجر المنطلق، يفجر لا يريد أن يحاط بشيء، أيضًا كذلك الفاسق لا يريد أن يلتزم بعهد، لا يريد أن يلتزم بموعد صلاة، بحقوق للناس، بقواعد للبيع والشراء، لا يريد أن يلتزم بشيء، يريد أن يغير كل هذه القواعد والقوانين على وفق هواه: {وَإِن وَجَدنَآ أَكثَرَهُم لَفَٰسِقِينَ}[الأعراف : ١٠٢] .

ثم قال ربنا –سبحانه وتعالى– بعد هذا الفاصل ما بين قصص السابقين وقصة سيدنا موسى: {ثُمَّ بَعَثنَا مِن بَعدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرعَونَ وَمَلَإِيهِۦ فَظَلَمُوا بِهَاۖ فَٱنظُر كَيفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلمُفسِدِينَ}[الأعراف : ١٠٣] بالطبع كل لفظة في القرآن تحتاج إلى وقفات، وأفنى المفسرون أعمارهم في ذلك، وفي كتب التفاسير الخير الكثير؛ لكن نحن سنحاول أن ننتقي ونقول إشارات سريعة، لأننا لو استطردنا فلن ننهي سورة الأعراف.

{ثُمَّ} وقف المفسرون لماذا قال الله في بداية قصة موسى {ثُمَّ بَعَثْنَا}؟

كل الآيات السابقة {أَرسَلنَا} وكانت معطوفة {لَقَد أَرسَلنَا نُوحًا إِلَىٰ قَومِهِ}، بعد ذلك {وَإِلَىٰ ثَمُودَ}، وبعد ذلك {وَإِلَىٰ عَادٍ}، {وَلُوطًا}، {وَإِلَىٰ مَدينَ}، هنا لماذا {ثُمَّ}؟ كأن هناك فارق طويل، هل المقصد الفارق الزمني الطويل فقط؟

أي هل المقصد من كلمة {ثُمَّ} أن بعثة سيدنا موسى جاءت متأخرة زمنيًا عن كثير من هؤلاء الأنبياء؟

وهذا قاله بعض أهل العلم، لكن اعترض بعض أهل العلم عليهم.

وهناك قول -وإن كان أيضًا فيه ضعف- أن سيدنا موسى جاء قريبًا من زمن شعيب وأنه عندما ذهب سيدنا موسى لمدين، أن الرجل الذي قابله وعمل عنده هو شعيب النبي، هذا اختاره بعض المفسرين وإن كان أنكره أيضًا كثير من المفسرين.

الشاهد: أن {ثُمَّ} بعضهم قال أنها جاءت للتراخي الزمني العادي وأنها فترة طويلة، وبعضهم قال لا.

لأن هنا يوجد تغيير حدث في سنة الله -سبحانه وتعالى-، وهذا مال إليه ابن كثير في أكثر من موطن في تفسير سورة المؤمنون وفي سورة القصص، أشار أن بعثة موسى عليه السلام وإنزال التوراة على موسى تحديدًا كان تغييرًا في سنة الله -عز وجل- في معاملة المعرضين، وأن الله -عز وجل- قبل إنزال التوراة كان يستأصل المعرضين كليةً بعذاب عام وبإنزال التوراة انتهى الاستئصال العام.

إذًا ماذا سيحدث للمعرضين؟ المعرضون ماذا كان يحدث لهم قديمًا؟

كان ربنا يستأصلهم بعذاب عام، والآن ماذا سيحدث لهم لما لا يأتيهم العذاب العام؟

-أحد الحضور: سيُطبع على قلوبهم-

سيطبع على قلوبهم هذا فعل الله -عز وجل-، وماذا أيضًا؟

أُمِرنا بقتالهم، من بعد بعثة موسى وإنزال التوراة أوجد الله أمة مؤمنة كثيرة العدد فَأُمِرت بالقتال، كل الأقوام السابقين كانوا مرحلة استضعاف قلة؛ فلم يؤمروا بالجهاد، لذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- لما أعرج به في السماء ونظر إلى أمة كبيرة وتمنى أن تكون هذه الأمة هي أمته كانت أمة مَن؟

أمة بني إسرائيل، أمة موسى -عليه السلام- كانت أمة كبيرة العدد لذلك هناك متشابهات كثيرة جدًا بين أمة النبي -صلى الله عليه وسلم- وأمة بني إسرائيل،

لذلك من أكثر القصص الذي جاءنا في القرآن هي قصص بني إسرائيل لأنها أمة مثلنا لم يعاملهم الله –عز وجل– أنهم غير مطالبين بالقتال وأنهم مجرد ثلة مستضعفة ينجيها الله –عز وجل– مع نبيهم وليسوا مأمورين بشيء، بل فرض عليهم

{يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ} [المائدة : ٢١]

فأعرضوا عن القتال فعاقبهم الله –عز وجل– بالتيه، فنحن أيضًا أمرنا بقتال المشركين المعاندين.

إذًا، عندما بلغ عدد الأمة المؤمنة نصابًا معينًا فهنا انتهت مسألة الاستئصال التام العام، هناك عقوبات خاصة تنزل وهذا الأثر مروي عن أبي سعيد الخدري سواء مرفوعًا أو موقوفًا عن النبي –صلى الله عليه وسلم– (أن الله –عز وجل– لم ينزل عذابًا عامًا من بعد إنزال التوراة على موسى)[٣].

أثر مروي عن النبي –صلى الله عليه وسلم– وحسنه بعض أهل العلم وضعفه بعض أهل العلم، وبعض أهل العلم قالوا أنه موقوف على أبي سعيد الخدري، يكثر من ذكره أو نقله ابن كثير في أكثر من موطن أيضًا، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية سبقه إلى ذلك، حتى بعض الروايات فيها استثناء (غير عذاب القردة)، أن الله –عز وجل– أمرهم أن يكونوا قردة خاسئين، ويوجد استثناء في بعض الروايات أن هذا العذاب الوحيد الذي جاء بعد إنزال التوراة، المسخ، وإن كان أيضًا ليس مهم الاستثناء؛ لأن المقصد العذاب العام.

ربنا –سبحانه وتعالى– أشار في القرآن، وأخبرنا النبي –صلى الله عليه وسلم– على من صحح الحديث أو رأي ابن كثير.

ليس معنى أن الله لن ينزل عذابًا عامًا استئصال أن هناك أقوام لن يعذبهم الله –عز وجل–، قد ينزل الله –عز وجل– المسخ والقصف على أقوام بأعيانهم في منطقة، بركان مثلًا ينفجر فيهم، زلزال عظيم صاعقة تأخذ جزء قليل من الناس قد يحدث ذلك.

لكن النبي –صلى الله عليه وسلم– أُرسل للعالمين فلن يحدث إهلاك لكل العالم المعرضين عن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم.

---

[٣] [عن أبي سعيد الخدري:] ما أَهْلَكَ اللهُ قَوْمًا، ولا قَرْنًا، ولا أُمَّةً، ولا أهلَ قَرْيَةٍ مُنْذُ أنْزَلَ التوراةَ على وجْهِ الأرضِ بعَذابٍ مِنَ السَّماءِ، غيرَ أهلِ القَرْيَةِ التي مُسِخَتْ قِرَدَةً، أَلَمْ تَرَ إلى قَوْلِهِ تعالى: ولقدْ آتَيْنا مُوسى الكتابَ من بَعْدِ ما أهلَكْنا القُرُونَ الأُولى بَصائِرَ لِلنّاسِ وهُدًى ورَحْمَةً لعلَّهُمْ يَتَذَكَّرونَ
الألباني (ت ١٤٢٠)، السلسلة الصحيحة ٢٢٥٨ • صحيح

هذا لن يحدث وهذا لم يحدث من بعد نزول التوراة، سنة الله -عز وجل- في معاملة الخلق من بعد إنزال التوراة لن أقول تبدلت، لأنه قضى ذلك من الأزل -سبحانه وتعالى-، لن أقول أن السنة تبدلت لكن هذه سنته -سبحانه وتعالى-، أن هنا عندما أصبح المؤمنون أمة، هم أمروا بالقتال، فإذا حدث انتهاك للحرمات لا تنتظروا نزول عذاب الاستئصال؛ بل أنتم مطالبون بالجهاد والقتال، لا تنتظروا الطير الأبابيل إذا هدمت الكعبة بعد بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم- أنتم مطالبون بالقتال.

إذًا، عندما يحصل للكعبة أذى لا قدر الله، أو كما حدث في التاريخ، فلا ينظر أحد ويقول أين الطير الأبابيل لا...

أنتم مطالبون بقتالهم، هذا تقصير منكم أنتم، يعاقبكم الله -عز وجل- على تقصيركم، المقصر يعاقبه الله -عز وجل- لكن الذي قام بوسعه لا يعاقبه الله -عز وجل-.

انظروا هل قصرتم؟ هل انشغلتم بدنياكم؟ هل رضيتم بالزرع؟ هل أصابكم الوهن؟

هذا ما يعاقبكم الله -عز وجل- عليه.

إذًا {ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعدِهِم}[الأعراف : ١٠٣]

هذا التراخي ليس فقط تراخي زمني؛ لكن هذه {ثُمَّ بعثنا} تفيد أن هناك معامله أخرى للأقوام من بعد إنزال التوراة على موسى عليه السلام.

{ثُمَّ بَعَثْنَا} لم يقل "أَرْسَلْنَا"، لكن مع سيدنا نوح قال {أَرسَلنَا}، فلماذا هنا قال {بَعَثْنَا}؟

البعث يأتي مع الميت، فكلمة {بعَثنَا مِن بَعدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا}[الأعراف : ١٠٣] طول الفترة في الضلال جعلت الناس كالأموات يحتاجون إلى طرح قوى جدًا، لذلك كانت دعوة موسى عليه السلام قوية، جاءهم بكلام قوي واضح، وآيات بينات مفصلات كما ستأتي في سورة الأعراف.

❖ هذا كيف نسقطه على واقعنا؟

طول فتره الركود بعيدًا عن الوحي وبعيدًا عن الدعوة يستلزم طرحًا قويًا، حتى يفيق الناس من غفلتهم، وهذا الوضع نحن نعيشه الآن، سقوط الخلافة الإسلامية، انشغال الناس بدنياهم، الأمم الإسلامية متفرقة، كل دولة وضعت لها حدود وانشغلت بشأنها الخاص، الدول الإسلامية بجانبنا تُقَتَّل وتمزق

وتقصف، ويحدث بها الأفاعيل، ونحن منشغلين كل دولة مشغولة بشأنها الداخلي، هجوم عالمي على الإسلام؛ بل هجوم عالمي على الإنسان كإنسان أصلًا.

لذلك مسألة تطور الأمم في الكفر كما في سورة الأعراف، أمر مهم جدًا أن يستوعبه الإنسان؛ لأن في مسألة فرعون وهذه آخر قصه ستقص علينا في قصص السابقين، أن فرعون وقوم فرعون وصلوا لقمة الفجور، ظلوا يتطورون في الفجور والكفر من قوم نوح، ثم قوم هود، ثم قوم صالح، ثم قوم لوط، ثم قوم شعيب، ثم قوم فرعون وصلوا لقمة الفجور، اكتملت دولة الفجور.

فإذا كان هناك مثلًا إعراض عن الآيات في قوم نوح، أو قتل للناقة في قوم صالح، فأصبح هناك انتشارًا للفاحشة في قوم لوط، وأصبح هناك فسادًا اقتصاديًا عالميًا مثل قوم شعيب، ثم أصبح هناك استعبادًا واستبدادًا مثل فرعون، أصبح هناك سحرة وإعلامًا فاسدًا، أصبح هناك ملأ، اكتملتش أركان الدولة العميقة الفاسدة.

في قوم فرعون حالة تستحق الدراسة لأنه حدث تطور في الفجور، كما هو الآن العالم يزداد فجورًا، فهو لا يتوقف عند مرحلة معينة كما قال لوط {قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ}،

مسالة الإسراف، وكان كثير من علماء الاجتماع قبل أن يصل العالم الغربي الآن إلى ما هو فيه من انهيار أخلاقي مجتمعي وانتشار للشذوذ وغير ذلك، كان هناك تنبؤ بأننا سنصل إلى هذه الحالة، لماذا؟

لأن الذي ينحي الوحي، ولا يوجد أي قيم عليا للإنسان، غالبًا سيصل لهذه المرحلة، فهم هذا الأمر مهم جدًا في الدعوة إلى الله -عز وجل- الأن؛ الناس يحتاجون إلى بعث، وليس مجرد تبليغ الرسالة، يحتاجون إلى كلام قوي، إلى طرح قرآني ونبوي قوي على الناس؛ حتى يفيق الناس من الغفلة.

العالم الآن يقوم بحالة من الجرف الفكري للناس، حالة من الاستعمار الفكري للناس، فأنت تقاوم استعمارًا، قضية الاستعمار ليست فقط مجرد وضع جنود لأهل الباطل في دول المسلمين لا، -طبعًا هو استخراب وليس استعمار-، لكن ليصير لفظًا قابلًا للاستعمال جعلوه "استعمار"، أصبح استعمارًا لفكر الإنسان، فحينما نقوم الآن بدعوة لبعثة الناس؛ لا بد أن نعي الواقع جيدًا نحن مستعمرون حتى في أحلامنا.

الإنسان المسلم في كل العالم مستعمر في قلبه وفكره وفي أحلامه، أصبح يحلم بأحلام الغرب، لا يفكر إلا بما يفكر به الغرب، فقد هويته، نسي ماضيه، لا يحلم بمستقبل الإسلام.

هو يفكر بدنياه فحسب فحينما نقوم بدعوة مضادة يجب أن نعي ذلك جيدًا، أن نعي موقع العالم الإسلامي الآن فيما يحدث، كما في قول المهندسين المدنيين "رفع الموقع" فيقومون بأخذ مقاسات ومساحات ودراسة ظروفه لرفع الموقع، فعندما تعمل بالدعوة عليك "رفع للواقع الإسلامي".

ولا يشترط لكل عامل، محفظ للقرآن في المسجد الذي يحفظ الأطفال فهو يقوم بعملية جيدة جدًا ومهمة جدًا لنشر الإسلام ولا أحقِّر منها، لكن أتكلم عن المصلح العام، لابد أن يعي هذا الوضع العام؛ كي لا يشغل عموم الناس بقضايا جزئية، لابد أن يستوعب ما يحدث، أمة إسلامية مفرقة، تنحية للشريعة في كل دول العالم، خلافات على أتفه الأسباب، انشغال بالدنيا، عدم وجود مؤسسات قوية تدافع عن الدين في العالم، انتهاك لحقوق المسلم في كل العالم.

❖ فكرة ال "ما بعد" في الغرب

فعندما تقوم أنت بدعوة مضادة، وتجد أن العالم الآن يفرض رؤيته الفكرية على المسلم، وأن المسلم لا يستطيع أن يتملص منه؛ لأنه يأخذ منه الطعام والمال والسلع، فأصبح مستعبدًا له في كل شيء، أنت تقوم الآن بدعوة مضادة لابد أن تعي ذلك، العالم يتطور في الفجور.

لذلك نشأ في العالم الغربي فكرة ال "ما بعد"، كانوا في البداية يقولون الإنسان، وعندما حدث ثورة على الكنيسة الظالمة في عصور أوروبا المظلمة، وحدث ثورة فبدل أن يرجعوا إلى الدين الحق قاموا بتنحية الدين تمامًا.

كانوا يقولوا في تعبيراتهم إن كان الله – تعالى الله عما يقولون– مركز الوجود، لا، نحن الآن نريد أن يكون الإنسان هو مركز الوجود، نرى احتياجات الإنسان، طبعًا إن العالم لا يتوقف عند مرحلة معينة في الفجور، فنشأ ما بعد الإنسان أو ما بعد المقدس، أو ما بعد الحداثة، ما معنى كلمة "ما بعد"؟

بمعنى ما فكرة "ما بعد"؟

لماذا عندهم في الغرب كل فترة يظهر مصطلح، ثم يقولوا ما بعد هذا المصطلح الـ (post)؟

مثلًا "الهيومنيزم" الإنسانية ثم "بوست هيومنيزم" ما بعد الإنسانية، لماذا؟

لأنهم لا يتوقفون عند حد معين، هم يحددون معاييرًا ثم ينقلبون عليها، لذلك الذي قال "ما بعد" هو مصطلح غربي حقيقة لأنهم ليس عندهم ثوابت.

كانت الدكتورة هبة رؤوف عزت أشارت إلى هذا المعنى، وكان الدكتور عبد الوهاب المسيري أشار إلى معنى جيد جدًا قال أن ثقافة الـ "ما بعد":

"أنا رأيي أن كلمة ما بعد نسميها –ضد– هذا المصطلح الحق، أن (post) نسميها (anti) لأن هو ينقلب على كل المفاهيم فيكون ضد الإنسان نفسه"، فمن العادي جدًا هذا الكلام الذي أقوله الغريب عن الواقع أشبه بكل بساطة أنهم كانوا يحضرون صنمًا ويعبدوه، ثم لا يعجبهم فيقوموا برميه، ويحضرون ترابًا ويضعون عليه ماء ولبن ويعبدونه ثانية وهكذا، كل فترة يحضرون لنا صنمًا يعبدوه ويريدون منا أن نعبده معهم، ثم لا يعجبهم فيحضرون صنمًا آخر يريدون منا أن نعبده معهم.

ونحن منتظرون، نحن في الحقيقةً أتباع نطوف حولهم نسير خلفهم ونحلم بأحلامهم، فنحن منتظرون الصنم الجديد، فهم كل فترة يخرجون لنا صنمًا.

الموضة تأتي لنا من الخارج كيف سنحلق شعرنا؟ كيف سنلبس؟ كيف سنفكر؟ ماذا ستكون طموحاتنا؟

ما رأيكم ماذا يعني تقدم؟ لكي نسير خلفكم، فأصبحنا نسير خلفهم.

فأنا تطرقت لهذا أيضًا لأسباب منها أن هذه الثقافة وهذا اللفظ للأسف استعمله بعض الإسلاميين لفظ الـ "ما بعد"، لو أننا نريد أن نؤصل فكرة ثانية، فالأولى ألا نستورد المصطلحات الخاصة بهم، والدليل على هذا واضح في سورة البقرة، عندما قالوا مصطلح راعنا فاستبدلنا المصطلح، دائمًا لنا مصطلحاتنا، لنا هويتنا الخاصة بنا.

فهم دائمًا يتقلبون والعالم يتطور في الفجور، لم يكن هذا حالنا في الستينات أو الخمسينات في العالم الغربي، لم يكن الفجور بهذا المنظر، لم يكن هناك انتشار الزنا والشذوذ بهذه الصورة.

❖ حال العالم دون وحي

وغالبًا كل فترة سنسمع عن فجور جديد وعن شهوة جديدة، لم يكن الإلحاد بهذا الوضع، لم يكن بهذه الأعداد، فالذين أسسوا الدولة المدنية، الذين نحوا الدين قالوا أن الملحد شخص لا يجوز أن نحترمه، ليس له معايير، ليس له مواثيق، وليس له قيمة عليا يعود إليها، فكيف له أن يقسم؟

حتى أنهم لما نحوا الدين، وقالوا كلنا نضع قيم واحدة إنسانية نتفق عليها بعيدًا عن الدين، فكان كل واحد يأتي مثلًا ويقسم على احترام هذه القيم، قالوا الملحد ليس له مكان في دول الغرب، وهؤلاء هم نفسهم الغرب، فكيف الآن أصبح هو –الملحد– الأكثر؟ ولماذا؟

لأن غالبًا كل فترة نجد تطورًا في العقائد، في الشهوات لا يتوقف، وهذا حال العالم بدون وحي.

أريدك أن تجمع ما مرَّ في سورة الاعراف شهوات، استبداد، رأس مالية مثل القوم الذين يدلسون في الوزن في قوم شعيب، فساد اقتصادي، انتشارالشهوات قوم لوط، إعراض، قتل للآيات قتل الناقة، هذا حال العالم بدون وحي، هذا كله –هذه التجميعة– ممكن تجده في أمة المعرضين عن دعوة النبي –صلى الله عليه وسلم–، استبداد، استعباد، شهوات فساد اقتصادي، كل هذا تجده موجودًا.

لماذا ربنا -سبحانه وتعالى- قص كل القصص على النبي -صلى الله عليه وسلم-؟

كي نستفيد من الخبرة التراكمية، لأننا سيواجهنا نفس ما واجههم، لأننا أمة خاتمة، يجب أن نعي هذا، أن هذه الخاتمة هي بعثة النبي هو خاتم المرسلين –صلى الله عليه وسلم–، فأنت بالذي معك من وحي مطالب بمواجهة كل هذا الضلال، كل هذا الباطل.

إن فهم هذا يجعلنا نعطي لكل شيء قدره، أعرف أين موقعي في المعركة، أكونُ مدركًا وأنا أقوم بتحفيظ الطفل الصغير القرآن أو حتى أعطي درس لغة عربية للشباب المسلمين، أو أعلم الناس أحكام الشريعة، عليّ أن أكون مدركًا أني بأضاد هذه الهجمة العنيفة، أتكلم عن هوية المسلم، اعتزازه بتاريخه المسلم، أقيِّم نفسي وأعيد القيم عند الناس، أعيد العزة والفخر بدين الإسلام بالوحي.

أنت من الممكن أن تسمع شخصًا يخطئ عشر أخطاء في سورة الفاتحة، وأنت تتعامل معه كأنه شيء عادي، ثم تسمع إنسانًا لا يستطيع أن يتكلم لغة إنجليزية بإتقان فتضحك، هذا المتخلف الذي لا يستطيع أن ينطق كلمة كذا بالإنجليزي، وهو هو نفس الرجل لا يستطيع أن يقرأ الفاتحة.

أنت تعاملت أنه لا مشكلة، وليس ضروري أن يتقن قراءة الفاتحة!!.

فأصبحت القيم لدينا متغيرة، لذلك ذكرنا من أول أو ثاني درس في سورة الأعراف مسألة الموازين، ***إن الموازين حينما تبتعد عن الوحي تختل.***

إذًا نعود إلى كلمة {ثُمَّ بَعَثْنَا}

العالم الآن يحتاج إلى بعث، دائمًا طول الركود يحتاج إلى قوة في الطرح، يحتاج إلى كلام أشبه بالواقع المكي المستضعف، كلام في الكليات الآن.

أنا لا أقلل من أهمية دراسة الجزئيات؛ بل بالعكس طالب العلم الذي يسهر ليله طوال الليل يحرر حتى لفظة لغوية، أو مسألة فقهية، هذا أمر مهم جدًا، العالم يحتاج –العالم الإسلامي الآن– يحتاج إلى تضافر كل هذه الجهود، لكن لا بد أن نعي جيدًا ما تمر به الأمة الإسلامية.

أحيانًا تجد بعض الخلافات تطول لأيام وكأننا في دولة الإسلام، كأننا في عهد عمر ابن عبد العزيز، وتجد نقاشات وخلافات طويلة.

من الممكن اثنين من الأخوة يختلفون مع بعض مثلًا على تفاصيل بعض أحكام الجزية، – يا بني نحن الذين ندفع الجزية – على ماذا تختلفوا!

أنا لا أقول لك لا تحرر هذه المسألة العلمية، لكن لا تقيم عليها المعارك الآن عند الناس.

أين تجد العقائد عند الناس أساسًا، فهذه هي الإشكالية، أننا لا نعي ما يحدث الآن لأمة الإسلام، هذا الاستعمار العام الذي غزا القلوب والعقول والأفكار تجد مع كل حادثة تحدث تكتشف الوضع الذي وصلنا إليه.

❖ مسألة الإستعباد

نعود إلى قوله –سبحانه وتعالى– ﴿بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾[الأعراف : ١٠٣] عليه السلام، اختار الله –عز وجل– موسى للقيام بهذه المهمة الصعبة، أن يذهب إلى هؤلاء القوم الذين عتوا ووصلوا إلى الفجور، أنِ ادَّعى أحدهم أنه ربهم الأعلى ولم ينكر عليه أحد، انظر كيف الناس ممكن أن تصل للفجور! مسألة الاستعباد، أن يستعبدهم شخص!

أحيانًا الشخص يتعجب، كيف قال فرعون أنه ربهم الأعلى؟!! هل لأن الناس لم يكن فارق معها من الرب، المهم أنها تأكل؟، أم هل وصلت عقول الناس إلى هذا الاستخفاف؟! ، كيف قالها فرعون؟!

أنا لا أستطيع أن أتخيل، كيف قالها فرعون!! كيف تجرأ أن يقولها؟!

أي كيف استطاع أن يقول هذه الكلمة أمام الناس ويجادل عنها؟!! وإذا جاء من يذكر الناس استجيبوا لرب العالمين، يُعرض عنه الناس!

كيف؟ ويحتاجون إلى آيات وبينات وأدلة وتسعة آيات مفصلات، كيف؟!

هل الإعراض وصل لذلك؟

وأيضًا ملمح في مسألة الاستعباد، وسنتكلم عن كيف وصل أهل الباطل، أهل الكفر والضلال وصلوا في قصة فرعون، وصلوا إلى اكتمال الفجور، كيف أن هناك أركان تقوم للدولة الفاسدة حتى تستمر.

مسألة فرعون، الملأ، السحرة، ولم يذكر معنا ركنان مهمان لم يذكرا في سورة الأعراف لكن مذكوران في القرآن: هامان وقارون، هذه أركان للدولة الفاسدة حتى تستقر على الفساد وتستمر.

الباطل عندما يتطور، يتطور ويريد أن يوطد أركانه، الباطل يريد أن يستقر، فيأتي الملأ ثم يأتي معهم فرعون ثم يأتي السحرة لأنهم يريدون توطيد أركانهم، كل واحد سيقوم بجزئية، فرعون له وظيفة غير وظيفة الملأ غير وظيفة السحرة، غير وظيفة قارون غير وظيفة هامان، كل واحد له وظيفة حتى تستقر هذه الدولة الفاسدة.

فنجد أن الأمور -كما قلنا- أنها تتطور، فلا بد أن تكون المواجهة أيضًا على كل هذه المستويات، أي لا بد أن يكون هناك مواجهة للسحرة، مواجهة لقارون اقتصاديا، مواجهة لهامان، مواجهة لفرعون.

هنا بعث الله -عز وجل- موسى إلى فرعون وملإه، في سور أخرى إلى فرعون وقومه، لكن نحن قلنا إن سورة الأعراف تخص الملأ، أي كلمة "الملأ" تكررت في القرآن كثيرًا؛ لكن أكثر سورة تكررت فيها كلمة الملأ هي سورة الأعراف.

فجاء لفظ { إِلَىٰ فِرعَونَ وَمَلَإِيهِۦ}[الأعراف : ١٠٣]، جاءت أيضًا في سور أخرى لكن هنا دلالة على أهمية الملأ، وسنذكر أهمية الملأ معنا في طوال قصة موسى عليه السلام مع فرعون.

{بعَثنَا مِن بَعدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا}[الأعراف : ١٠٣]

إذًا اصطفى الله -عز وجل- موسى لهذه المهمة، وأعطاه من الآيات ليقوم بهذه المهمة، وأيضًا اصطفى الله -عز وجل- محمد -صلى الله عليه وسلم- لهذه الأمة الخاتمة وأعطاه القرآن ليقوم بهذه الدعوة.

فالآيات والبينات التي مع موسى كانت كافية لدعوة فرعون، والذي معنا من وحي كافٍ لدعوة العالم، لا بد أن نوقن بذلك، تجد باء المصاحبة { بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ}[القصص : ٣٥]

{ثُمَّ بَعَثنَا مِن بَعدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرعَونَ وَمَلَإِيهِۦ}[الأعراف : ١٠٣]

العجيب أن كل الرسل كانوا يبعثون إلى أقوام أو إلى مدينة على خلاف في كلمة مدين هل المقصود بها المدينة أم القبيلة؟

لأن مدين اسم شخص، لم يقل ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى قوم فرعون أو إلى مصر، لم يذكر القوم ولا البلد؛ لكن ذكر رئيسهم لأنهم كانوا تحت سيطرته، فانطلق موسى إلى الأصل، إلى فرعون وملإه، وهم أسباب الفساد فشعبهم كان تابعًا لهم لا يستقل برأيه، فلو انطلق موسى يكلمهم لن يستفيد منهم شيئًا.

{إِلَىٰ فِرعَونَ وَمَلَإِيهِۦ فَظَلَمُوا بِهَاۖ فَٱنظُر كَيفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلمُفسِدِينَ}[الأعراف : ١٠٣]

وسنذكر الخلاف،

هل دعوة موسى عليه السلام كانت موجهة إلى بني إسرائيل فقط؟ أم كانت موجهة إلى فرعون وإلى بني إسرائيل؟

اختلف المفسرون في هذه النقطة عند قوله -سبحانه وتعالى- {فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ}[الأعراف : ١٠٥] .

{ثمّ بَعَثنَا مِن بَعدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرعَونَ وَمَلَإِيهِۦ فَظَلَمُوا بِهَا}[الأعراف : ١٠٣]

{فَظَلَمُوا بِهَا} الهاء، تعود على ماذا؟ على الآيات.

وما معنى"بها" في {فَظَلَمُوا بِهَا}؟

نحن ذكرنا هذا المعنى في أول صفحة في سورة الأعراف {بِمَا كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَظلِمُونَ}[الأعراف : ٩]

قلنا الخلاف هل يتضمن معنى كفروا بها؟ أو جحدوا بها؟ أو ظلموا بها أي ظلموا بسببها؟ بدل أن تكون الآيات سببًا لإيمانهم كانت الآيات سببًا في شقائهم وظلمهم؟

وقال بعض أهل العلم وابن عاشور هنا أشار لمعنى {فَظَلَمُوا بِهَا} أي:

ظلموا المؤمنين بسببها، منعوا المسلمين عن رؤية الآيات، أي لم يعطوا لهذه الآيات حقها، أي الآيات كان يجب أن تكرم وتشرف، ويُقبِل عليها الناس فظلموا بها، والتفاصيل موجودة في الدرس الثاني من سورة الأعراف.

{فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ}[الأعراف : ١٠٣]

الناظر كي يعتبر لا بد أن ينظر إلى العاقبة، لا إلى البداية {فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ}[الأعراف : ١٠٣]

الناظر الذي سيدرس قصة فرعون من أولها فقط ويتوقف، الذي يقرأ-ولاسيما في الإسرائيليات الواردة إلينا- عن مدى تعذيب فرعون لبني إسرائيل ومدى استعباده لهم يتعجب، بل يكاد ييأس لكن كانت العاقبة غرق فرعون.

فالذي يريد أن يتأمل في وضع من الأوضاع، لا بد أن ينظر إلى العاقبة، إلى المآل، فلما تتأمل أحوال المسلمين الآن؛ قد يصيبك الإحباط واليأس لكن مآلهم هو النصر، لذلك كان يصّبر الله المستضعفين دائمًا بالنظر إلى العاقبة إلى المآلات.

{فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ}[الأعراف : ١٠٣] وَصْفُ الإفساد صار ملازمًا لهم!

ولم يقل فانظر ماذا كان عاقبة المفسدين؟ والتي كانت الغرق، بل {كَيۡفَ كَانَ}؟

كيف دبر الله ذلك في لطف، وفي تدبير منه -سبحانه وتعالى-؟، كيف أهلكهم؟

لذلك يأتي دائمًا لفظ "كيف" مع الإهلاك، {فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ}[الأعراف : ١٠٣]؛ لأن الإهلاك لا يُشترط أن يأتي بصورة مباشرة، ولكن باستدراج، وإمهال.

بدأ موسى دعوته: {وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ}[الأعراف : ١٠٤] قال العلماء -ومنهم ابن عطية، وتبعه غيره من المفسرين-أن كلمة "يا فرعون" ليس المقصد منها إهانة، بل المقصد منها التكريم، هو يناديه باسمه المعروف، وهو لقب الملك، مثلما تنادي أنت على قيصر، أو على كسرى، فهو أعطاه اللقب الذي يحبه، ويحب أن يُنادَى به، ليس فيه إهانة، وإن كان البعض قال: أنَّ سيدنا موسى تجرأ وخاطبه بهذا اللقب؛ حتى يُظهر قوته.

والبعض قال: أنَّ المقصد من ذلك أنه يُلين له القول، وخاطبه باسم لا ينفر منه؛ فقال له: {وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ}.. [الأعراف : ١٠٤] أكدّ هذا المعنى، والتأكيد يُستعمل لو أنَّ الذي أمامك شاكٌّ، أو أنك تتنبأ أنه سيشك في الكلام، فتؤكد هذا المعنى.

{ إِنِّى رَسُول مِّن رَّبِّ ٱلعَٰلَمِينَ}[الأعراف : ١٠٤] ولم يقل من "الله "؛ لأن فرعون ادّعى الربوبية، لذلك قال "رب العالمين"، أنت تَدّعي أنك ربّ لأهل مصر، هل أنت ربّ لأهل الشام؟ هل أنت رب لأهل اليمن؟ هل ادّعيت ذلك؟.. لا؛ أنا جئتك من رب العالمين.

{ إِنِّى رَسُول مِّن رَّبِّ ٱلعَٰلَمِينَ}[الأعراف : ١٠٤]

¤¤¤¤¤¤¤¤¤¤

السلام عليكم، الحمد لله، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، محمد -صلى الله عليه وسلم-.

{وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرعَونُ إِنِّى رَسُول مِّن رَّبِّ ٱلعَٰلَمِينَ}[الأعراف : ١٠٤] دعوة واضحة، أتيت من عند الله -عز وجل- لم آتِ من نفسي، بل أرسلني الله -عز وجل- برسالة واضحة.

أول الكلام: يا فرعون، أؤكد لم آتِ عبثًا، أو لهوًا، إني رسول من رب العالمين، مِن أول كلمة وهو ينازع فرعون فيما ادّعاه؛ أنت ادَّعيت أنك ربهم، وأنا أقول لك إني رسول من رب العالمين!

{حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ}[الأعراف : ١٠٥]

لفظ كلمة {حَقِيقٌ عَلَىٰ} اختلف فيه المفسرون؛ وهناك قراءة {حَقِيقٌ عليَّ }: أي واجب عليّ، وحتم عليّ ألَّا أقول على الله إلا الحق:

*فبعض أهل العلم قال هذه القراءة بمعنى القراءة الأخرى {حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ}[الأعراف : ١٠٥]، أي أيضًا يحق عليّ، وواجب عليَّ ألَّا أقول على الله إلا الحق.

*وقال بعض أهل العلم {حَقِيقٌ عَلَىٰ} تأتي هنا بمعنى حريص، وأتى معها حرف الجر "على".

إذًا، إما أن أقول "حقيق" بمعنى "حريص " فيكون المعنى "حريص على ألا أقول"، أو نقول "على" بمعنى الباء، وتكون "حقيق بألَّا أقول على الله إلا الحق".

المعنى الذي في قراءة حفص {حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ}[الأعراف : ١٠٥]، **أي** يحق عليَّ ألَّا أقول ذلك، ويتحتم عليَّ، فأنا لا أتكلم كلمة إلا من عنده، وبأمره -سبحانه وتعالى- كل كلامي حق فلا أتكلم إلا بأمره وبإذنه.

*وبعضهم قال أنَّ {حَقِيقٌ عليَّ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ}[الأعراف : ١٠٥] بمعنى أنَّ قول الحق يجب أن يخرج مِنّي، كأنه هو قائل للحق، مثلما قال الزمخشري: " أغرق نفسه في وصف الصدق"، يصف نفسه بالصدق كاملًا؛ فهو لا يتكلم إلا بأمر من الله.

هذا الكلام عكس الشعراء، الشعراء يتكلمون بكلام خيالات، ومشاعر، وأحاسيس، قد لا يقصدها، وقد لا يطبقها، لذلك دائمًا ماذا يقولون؟

"كلام الشعراء غير أفعالهم"، قد يتكلم الشاعر بأبيات فيها فحشاء، وهو لم يمارس الفاحشة قط، ولكنه الخيال أتى به، والمشاعر ذهبت به إلى هذا الوادي! {أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ}[الشعراء : ٢٢٥].

لكن النبي قوله حق؛ {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ}[يس : ٦٩]، وأنا تكلمت في هذه المسألة في سورة يس، أنَّ الوحي كلام منضبط، ليس بمشاعر، أو عواطف تُدفع، وتقال في أي وقت.

فقال {حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ}[الأعراف : ١٠٥]

أتيتك بكلام حق، لأني بما أني أقول أني رسول من عند الله، فإني أقول على الله؛ لذا كلامي لا بد أن يكون حقًّا، وهذا أمر ينبغي أن يستحضره المفتي دائمًا، أنه يقول على الله، فلا بد أن يقول على الله الحق، كما ذكرنا "إعلام الموقعين عن رب العالمين".

{قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ}[الأعراف : ١٠٥] انتقل الخطاب من أنه يتحدث عن نفسه {رَسُول مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ}[الأعراف : ١٠٤] إلى "ربكم" {قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ}[الأعراف : ١٠٥]، هو أتى بقضية عادلة واضحة، صريحة، موافقة للفطرة، وأتى ببينات على هذه القضية {قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ}[الأعراف : ١٠٥]، ما هي هذه البينة؟

بعض أهل العلم قال البينة أحيانًا تأتي بمعنى الحُجة؛ أي كلام واضح الحجة، موافق للعقل، والفطرة، وأحيانًا تأتي بمعنى المعجزة؛ {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}[الحديد : ٢٥] -آخر سورة الحديد- فقالوا إذا كان الكتاب معجزة، إذًا البينة لم تكن معجزة، بعضهم قال لا؛ فالكتاب في أيامهم لم يكن معجزة.

نأتي هنا، هل البينة في الآية يقصد بها أنَّ معي آية معجزة لتدل على صدقي، أم أن كلامي بينة واضحة لا تحتاج إلى معجزة؟

قال بعض المفسرين: عندما قال له فرعون الآية التي تليها مباشرة {قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}[الأعراف : ١٠٦]، قال إن كنت جئت "بآية"، ولم يقل له "ببينة"، فطالما هناك خلاف في السياق بين بينة وآية؛ إذًا "بينة" المقصود منها الحُجة، والبرهان العقلي الفطري الواضح، والآية هي المعجزة الحسية.

قال له سيدنا موسى: أنا كلامي عليه بينات واضحات من العقل والفطرة، ولا يحتاج إلى معجزة، فقال له فرعون أنا لا أقتنع بكلامك، أريد شيئًا حسيًّا، {إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ}[الأعراف : ١٠٦] والبعض قال أن "آية" بمعنى" بينة"، وأنا أميل للقول الأول أنَّ البينة غير الآية.

{قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ}[الأعراف : ١٠٥] أي هو الذي وضع فيكم الفطرة، وهذا الكلام جئت به منه، وموافق لفطرتكم.

{قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ}[الأعراف : ١٠٥]

هنا وقف المفسرون، وقالوا لماذا لم يقل له فآمن؟، لماذا طلب منه أن يرسل بني اسرائيل؟، هل دعوته ليست موجهة إلى فرعون؟

وهذا اختيار ابن عطية، وغيره من المفسرين، أن دعوة موسى أصالة ليست إلى فرعون، لكن هو جاء ليخرج بني إسرائيل من استعباد فرعون؛ ليذهب بهم مرة أخرى إلى الأرض المقدسة، بعد أن أتى بهم يوسف –عليه السلام–، يوسف أتى ببني اسرائيل، من هو إسرائيل؟

سيدنا يعقوب عليه السلام، فيوسف أتى ببني يعقوب –بني اسرائيل– من الشام إلى مصر، فأراد موسى عليه السلام أن يرجع بهم مرة أخرى إلى الشام؛ أراد أن يُخرج بني إسرائيل من استعباد فرعون، ويذهب إلى الشام مرة اخرى.

ليس الأمر للضحك، لا ينبغي لأحد أن يقيس الماضي بالحاضر أبدًا، فالحاضر أسوأ بكثير.

قد يُردّ على هذا القول بما ورد في سورة النازعات: { هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ }[النازعات : ١٨-١٩] أليست هذه دعوة مباشرة؟

حتى ابن عاشور بالرغم أنه ارتضى قول ابن عطية، ابن عطية لم يرد على هذه المسألة، أو أنه أشار إليها إلماحًا.

ابن عاشور قد اختار هذا القول، وهو أن سيدنا موسى أتى لاستخراج بني إسرائيل ودعوتهم أصالةً، لكنه يقول أن النبي الذي يرفع راية التوحيد يدعو، لكن ليس بالأصالة.

- **ما معنى كلمة "ليس بالأصالة"؟**

أي لا يكرر الدعوة ولا يُنازع فيها.

أي دعا سيدنا موسى فرعون فلم يهتدي فرفض فقال له أعطني بني إسرائيل وأرحل.

فنجد نفس المعنى في سورة طه –كما في سورة النازعات–، أنه خاطب فرعون بالهداية {إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ}.. [طه : ٤٧]

فابن عاشور قال أنَّ هذه الدعوة ليست موجهة له بالأصالة؛ أي أنَّ الدعوة لو كانت موجهة له بالأصالة؛ لن يخرج ويتركهم، فهو نبي، أو حتى لو خرج وجهز الجيوش، فسوف يرجع مرة أخرى إليهم، لو كانت الدعوة موجهة له –فرعون–، كما فعل الرسول –صلى الله عليه وسلم– مع قريش، فهو حينما تركهم أتاهم مرة أخرى، وغزا الروم وفارس؛ لأنها دعوة عالمية.... ***هذا قول***.

أما القول الثاني: أن الدعوة كانت موجهة له، لكنه لا يستطيع منازعتهم الآن؛ فهو خرج ليفتح الأرض المقدسة فإن قدر الله تعالى له بعد ذلك نشر الدعوة.

هذا الخلاف، وكما قلت لكم القول الأشهر الموجود في التفاسير هو قول ابن عطية، أنه جاء لإخراج بني إسرائيل، وأن الدعوة ليست موجهة إلى فرعون أصالة، ليست هناك استفادة عملية من هذا الخلاف في واقعنا؛ لأن دعوة النبي –صلى الله عليه وسلم– هي دعوة عالمية؛ وبالتالي؛ أيًّا كانت دعوة سيدنا موسى موجهة لفرعون أم لا، نحن دعوتنا موجهة إلى كل فرعون؛ فالدعوة الآن عالمية.

{فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ}[الأعراف : ١٠٥]

بالرغم من أن الطلب هنا ليس فيه شيء؛ هو فقط يقول له اترك لي بني إسرائيل، ولكن فرعون رفض إخراج بني إسرائيل، {قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}[الأعراف : ١٠٦]

لماذا رفض إذًا؟

*بعضهم قال إنه خاف أن يُكوِّن بهم جيشًا، ويرجع ليهاجمه.

*وبعضهم قال لا، بل هي مصالح فرعون كلها وقومه، كلها كانت قائمة على خدمة بني إسرائيل له، وأنت يا موسى عندما تأتي تأخذ بني إسرائيل منَّا، مَن الذي يُسيِّر لنا مصالحنا إذًا؟ لذلك رفض.

*وقال بعضهم: بنو إسرائيل أصلًا أمة مستعبدة رضيت بالذل، وأنت تريد أن تحدثهم عن العزَّة، وأنهم عبيد لله، وتُحيي فيهم أشياء قد ماتت، نحن لا نريد لهم مثل هذا، ما هم فيه جيد بالنسبة لنا، اتركهم على ما هم عليه.

وهذا أمر مهم جدًا، وهو أن مسألة إحياء العزة داخل النفوس أمر يرفضه كل فرعون، لن نتركهم لك توقظهم من غفلتهم، نحن بذلنا مجهودًا كبيرًا؛ كي يصلوا لهذا الحال، ويرضوا به، ويقتنعوا أنهم عبيد لدينا؛ لذا لن نعطي لك بني إسرائيل، هم رضوا بذلك ومصالحنا قامت على ذلك، والأمور التي ذكرتها كلها أسباب خوف فرعون من ذلك.

{قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}[الأعراف : ١٠٦]

ذكرنا هنا أن الخلاف في كلمة "آية" هل معناها بينة أم معجزة حسية؟

وهنا مشهد أريد أن أستحضره معكم، في قصة سيدنا موسى مع فرعون في سورة الأعراف –وإن كان واضحًا أكثر في سورة الشعراء–، يوجد ملمح ضعوه دائمًا في ذهنكم، دعونا نفترض أو نتخيل أن هناك كائنًا –كما أسميه– "الكائن الخرافي"؛ شخصية لديها القدرة على تصديق أي شيء يقوله فرعون، تخيلوا معي أن هناك شخصًا من أول لحظة مجيء موسى عليه السلام وهو جالس يشاهد، وحتى لحظة غرق فرعون هو جالس يشاهد، أريدك أن تستحضر معي هذا الشخص جيدًا؛ لأنه مهم جدًا، ولديه القدرة على تصديق أي شيء، وفرعون كذلك لديه القدرة أن يقنعه بأي شيء، هذا الكائن نسميه مجازًا "الكائن الخرافي"، هو شخص عادي من قوم فرعون، جاءه رسول يقول: إني رسول من رب العالمين.

○ لماذا يتضح هذا المشهد أكثر في سورة الشعراء؟، لماذا هذا الشخص موجود أكثر في سورة الشعراء؟

بل المشهد الذي ذُكر في سورة الشعراء لأول مرة يذكر الناس {وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ}.[الشعراء : ٣٩-٤٠] ؛ لأن هؤلاء الناس الذين خُدعوا، هم من يخدعهم الشعراء، {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ}[الشعراء : ٢٢٤] هؤلاء هم الغاوون، هذا هو الكائن الخرافي الذي يُخدع بسهولة!!

○ لماذا أذكر هذا الرجل خصيصًا؟

لأنه أحيانًا تفاصيل القصة تنسيك وضوح حجة سيدنا موسى؛ أي من الممكن أن كلام فرعون ورد سيدنا موسى عليه يشعرك أن الأمر كان سجال، لكنَّ الأمر كان واضحًا جدًا؛ أي تخيل رجلًا يجلس إلى جانب فرعون يشاهد المشهد، وجاء موسى عليه السلام يقول له أنا رسول رب العالمين، ففرعون –كما في سورة الشعراء– لم يرد عليه، وقال له أنت قتلت واحدًا {وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ}[الشعراء : ١٩] ، وهذا خارج حوار سيدنا موسى.

ولكنَّ سيدنا موسى رد عليه {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ◯ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ}[الشعراء : ٢٠-٢١] ، نعم أخطأت، ولكن أنت تعاتبني، بل وتمنَّ عليَّ بتربيتك لي في قصرك، وهل أنت فعلت ذلك أصلًا إلا بسبب أنك كنت تقتل الأطفال، واستعبدت بني إسرائيل، وأنا كنت أريد أن أربِّي في بيت أمي، إذًا فهي ليست منَّة منك!

{وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ }[الشعراء : ٢٢] ؛ فغُلب فرعون في هذه القصة، والثاني –الكائن الخرافي– لم ينتصر لسيدنا موسى، لم يقل لقد انتصر موسى في هذه الحجة، بل ظلَّ إلى جانب فرعون!!

فغير فرعون الحوار –في سورة الشعراء– عندما انتصر عليه سيدنا موسى بهذه الحجة قائلًا: {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ }[الشعراء : ٢٣] فردَّ عليه سيدنا موسى في ثلاث آيات متصلات في سورة الشعراء، فغُلب فرعون ثانيَة، وقال أنا لست مقتنعًا بهذا الكلام أصلًا، أريد آية بينة!!

فقال له سيدنا موسى هل لو أتيتك بآية، ستؤمن؟

قال فرعون: نعم ائتني بآية.

فأتى له بهذه الآية، فقال: لا، هذه ليست آية، أنت ساحر!!

وإن لم أكن ساحر هل ستؤمن؟

في كل مرة فرعون يفرُّ من الحوار، وإلى جواره هذا الكائن الخرافي معه، ويصدقه لآخر لحظة، فنجد هنا في الحديث عن الآية: {قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ }[الأعراف : ١٠٦] أي لو أنا جئت بآية هل أكون صادقًا؟

{ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَان مُّبِين}[الأعراف : ١٠٧] "إذا" الفجائية،هي ثعبان مبين لا ينكره أحد!

((وإن كان هناك إسرائيليات كثيرة -لا أحب أن أذكرها- في مسألة وصف الثعبان، وطوله وحجمه))

{قَالَ إِن كُنتَ جِئتَ بِـَٔايَةٖ فَأتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ}[الأعراف : ١٠٦-١٠٧]

- فألقى: تفيد السرعة مباشرة.
- عصاه: هي أمام الناس عصا، هي عصا حقيقية!! {فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ}[الأعراف : ١٠٧]
- {وَنَزَعَ يَدَهُۥ}[الأعراف : ١٠٨] :سيدنا موسى كان آدم اللون، أسمر.
- {فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ}[الأعراف : ١٠٨] أصبحت يده بيضاء، وكأنها تُخرج النور، لا ينازع أحد في تغيرها، من غير برص، ولا آفة، فتعجَّب الجميع {وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ}[الأعراف : ١٠٨] ؛ لأنها آية واضحة، لم يستطع فرعون أن يواجه هذه الآيات، وهو يدَّعي الربوبية!

{قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ۝ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ}[الأعراف : ١٠٩-١١٠]

هنا وقفة: مهم جدًا أن تكون مستحضرًا لسور القرآن في ذهنك، في سورة الشعراء: {قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ۝ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ}[الشعراء : ٣٤-٣٥] مَن قال هذا في الشعراء هو فرعون، جملة {إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ۝ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم} نفس الجملة مذكورة في سورة الشعراء، ولكن على لسان فرعون، هنا مَن الذي قالها؟ الملأ؛ قُلنا أن سورة الاعراف تركز على الملأ، فالشعراء ناسبت أن فرعون هو من يتكلم، والأعراف ناسبت أن الملأ من يتكلم.

إذًا مَن الذي قالها؟ فرعون أم الملأ؟ قالها الاثنين، فمن ذكرها أولًا؟

هنا اختلف المفسرون هل الشعراء قبل الأعراف فيكون فرعون قالها أولًا؟ كأنَّ فرعون كان يجمع الملأ، ويريد أن يوصل شيئًا للناس، ففرعون يقنع الملأ، والملأ يقنعون الناس، أو الملأ يحضرون السحرة، والسحرة ينشرون هذا الكلام للناس مرة أخرى.

تصور أنَّ فرعون يريد إيصال معنى معين، وهو أن سيدنا موسى –وحاشاه– ساحر، فيقول فرعون للملأ ذلك، والملأ يقولون فعلًا {إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيم ۝ يُرِيدُ أَن يُخرِجَكُم مِّن أَرضِكُم} وحذفوا كلمة "بسحره"، كأنهم لا يريدون أن يظهروا وهم يكررون نفس الكلام لفظًا {يُرِيدُ أَن يُخرِجَكُم مِّن أَرضِكُم} ، وهم يريدون أن ينشروا هذا الكلام بين الناس.

ولكن هؤلاء الملأ هم النخبة، لن يتمكنوا من الانتشار، والنزول وسط الناس، فيأتوا بالسحرة المنتشرين في القبائل؛ فالسحرة لديهم القدرة على الوصول لكل الناس، والنَّاس يحبونهم وهم المشهورين.

إذًا الملأ يقنعون السحرة، والسحرة ينشرون هذا الكلام بين الناس، وبذلك فرعون يستطيع أن يوصل الفكرة للمجتمع بأكمله!!

اختلف آخرون مع هذا الكلام؛ لو قُلنا أن الأعراف كانت قبل الشعراء، وأن الملأ هو من يتحكم أصلًا، المجلس المَلَئِي، فهو من قال لفرعون ذلك، عندما شعر فرعون بالخوف لما رأى الآية، وفقد السيطرة على نفسه –هذا قول آخر–.

حتى ابن عاشور قال: "فإما أنه تبعهم فيما قالوا، أو تبعوه فيما قال" توقف ابن عاشور هنا، ولم يرجح رأيًا على آخر.

غيره رجح –وهذا عليه الأغلب– أن الملأ تبع فرعون، وفرعون هو من قال أولًا، –قالوا الشعراء الأول– وقالوا لا يستطيع الملأ أن يتكلم بحضرة فرعون، لكن لماذا؟ فمن الوارد أن يكون الملأ هو الذي قال لفرعون، وفرعون عاد ثانيةً وقال ذلك للملأ؟ كيف يقول له الملأ، وهو يعود فيقول للملأ؟

احتمال أن يكون هناك نوعان من الملأ، وانتبهوا معي في هذه المسألة، هناك ملأ خاص جدًا حول فرعون، وهذا الملأ هو من قال لفرعون، وهو المذكور في سورة الأعراف، لذلك أنت تتعجب أن الملأ هنا في سورة الأعراف يأخذ قرارات، ويهيج فرعون {أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَومَهُ لِيُفسِدُوا فِي الأَرضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ} [الأعراف : ١٢٧] يثيرونه ويهيجونه!!

عندما انتشر الإيمان بين الناس، لم يكن فرعون قادرًا على التصرف، هم من ذهبوا إليه، وقالوا له هل ستظل ساكتًا أمام ما يحدث؟؟ لا بد أن تتحرك، وحركوه بالفعل، واتخذ قرارت {قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبنَاءَهُم وَنَستَحيِي نِسَاءَهُم} [الأعراف : ١٢٧] فهم المتحكمون هنا في سورة الأعراف، الملأ الخاص.

وهناك ملأ ثانٍ متصل بالناس؛ لذلك سنجد أنَّ المفسرين اختلفوا اختلافًا طويلًا جدًا، كيف أن الملأ يقول في سورة الأعراف هنا {إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ۝ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ } ... {فَمَاذَا تَأْمُرُونَ}[الأعراف : ١٠٩-١١٠] من الذي قال "فماذا تأمرون"؟

○ مَن القائل؟ ويكلم مَن؟

بعضهم قال الملأ يتكلمون مع فرعون بصيغة الجمع، قالوا كيف؟؟

ولو كان الملأ يكلم فرعون بصيغة الجمع والتفخيم، هل يعودون مرة أخرى ويتكلمون بصيغة المفرد {قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ}[الأعراف : ١١١] ؟ ولو كان الذي يتكلم فرعون كان السياق "قال أرجه وأخاه"، فالله لن يتكلم عن فرعون بصيغة الجمع {قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ}[الأعراف : ١١١] ، قالوا أن فرعون رد وهم قالوا نفس الكلام.

وبعضهم قال لا، الملأ يكلم بعضه، وهم جالسون مع بعض مجلس مشورة قبل الذهاب لفرعون، يتناقشون كيف سيتصرفون.

وبعضهم قال لا، هذا الملأ العام يسأل الملأ الخاص هو وفرعون، بم تأمروننا؟ كيف نتصرف؟ ماذا نقول للناس؟ {فَمَاذَا تَأْمُرُونَ} ؟

ففرعون والملأ الخاص أجابوهم، وقالوا أخذنا قرارًا: {أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ}[الأعراف : ١١١] .

فتجد أيًّا كان (السيناريو) الذي تختاره في فهم الآيات، وأيًّا كان رأي المفسر الذي تختاره -ولا سيما لو كان من المتقدمين- تجد أن مسألة السياسات هذه دائمًا متداخلة؛ يوجد فرعون، وملأ خاص، وملأ عام، ومَن القائل؟ ومَن المتحكم؟ وهل هي كلها مصالح واحدة؟.. إلخ.

لذلك الأقوال قيلت على ألسنتهم جميعًا، إن ملكه مرتبط بوجودهم، ووجودهم مرتبط بملكه، فهي كلها أمور متداخلة، فدائمًا في الداخل تحدث أمور غريبة، وأنت لا تعلم من الذي يصدر القرار في الداخل (داخل قصر فرعون)، دائمًا ما تحدث أمور مريبة، وتداخلات وأقوال كثيرة.

{قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ}[الأعراف : ١٠٩]

نعود لسورة الأعراف، مَن المتكلم، والمتحكم الأساسي؟ الملأ.. {قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ}[الأعراف : ١٠٩]

وبقمة التأكيد، وقمة الثقة قالوا: {إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ }[الأعراف : ١٠٩] ، بعض أهل العلم قال – وهذه كانت لفتة جميلة– لم يقل فرعون للناس بنفسه "إنه ساحر"، لماذا؟

لأنه لو قال للناس أنه ساحر، وغُلب السحرة بعد ذلك، هو بذلك صورته ستظهر بشكل سيئ، ولكنه بوسعه أن يُغيِّر هذا الملأ الذي ادَّعى أنَّ موسى ساحر، ويأتي بغيره، في النهاية أنا لم أقل لكم شيئًا!! {وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}[ابراهيم: ٤٦]

{قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ}[الأعراف : ١٠٩] ماذا يريد؟ {يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّن أَرضِكُم فَمَاذَا تَأْمُرُون}[الأعراف : ١١٠] ولكن ليس هذا ما قاله موسى!! يلعبون هنا على مسألة الوطنية، {يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم}[الأعراف : ١١٠] فرعون يستعبد الناس طوال الوقت، والآن يقول لكم أنَّ هذه أرضكم!! فقط عندما أتى سيدنا موسى أصبحت هذه أرضكم أنتم؟! وأصبح فرعون مجرد واحد معكم، وأنتم اخترتموه، وهذه أرضكم أنتم، تصرفوا أنتم إذًا!

{يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّن أَرضِكُم فَمَاذَا تَأْمُرُون}[الأعراف : ١١٠]

أصبحت أرضهم الآن؟!

آسف على الإطالة..

المرة القادمة إن شاء الله نتكلم عن مسألة {يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّن أَرضِكُم}[الأعراف : ١١٠]

ولماذا رفض المواجهة؟

لماذا قال الملأ –سواء الخاص أو العام– {أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۝ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ}[الأعراف : ١١١-١١٢] ؟

بإذن الله –عز وجل– نُكمل المرة القادمة، لكن ***أكرر أنَّ القرآن أتانا لنعتبر به؛ ولنعمل به في واقعنا، وأن نقوم بهذه الدعوة، فهي دعوة عالمية؛ ونواجه العالم بهذا القرآن العظيم.***

أسأل الله –تعالى– أن يجعلنا من أهل القرآن، الذين هم من أهله وخاصته، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهُمَّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وجزاكم الله خيرًا.